ياسين رفاعية

رجلان في مقهى

كان الشارع يزدحم بالمارة ، ولم يكن احد يستطيع مخاطبة احد بصوت منخفض . ابواق السيارات ، واصوات الباعة . وهدير الطائرات ، والموسيقى المنبثة من بعض المحلات ، كلها كانت تشكل صخبا . وحركة لا تهدأ من الضجيج .

ولقد كانت الناس تتدفق من ابواب السيارات والشوارع المتفرعة لتصب كلها على الارصفة ، مثل ينابيع تتفجر هنا وهناك ، لتدخل فيما بعد مسار نهر عظيم .

كان الرجل الخمسيني يتامل كل هذا من زاويته في المقهى . وهو ينفث دخان غليونه بهدوء . وفي رأسه تنهمر الذكريات مثل رذاذ المطر . راى رجالا بمثل سنه يقودون اولادهم ، او يتابطون اذرعة زوجاتهم . وتذكر انه بلا ام ولا اب ولا زوجة ولا اولاد . وتذكر كيف رحل عنه الجميع ، كل على طريقته بالموت وبالحياة . تذكر المراة التي احبها . وقالت له ايضا انها احبته . لكنها تخلت عنه ، لانه لم يكن يستطيع تحقيق احلامها ، بل ان طموحه مات لمجرد تخليها عنه . فلم يعد يعيش الا ليومه ، بل وللحظته فقط .

اشياء كثيرة هزت الرجل الخمسيني القابع هذه اللحظة في زاويته المفضلة في المقهى . ولا يدري لماذا احس لاول مرة . ان هذه الحياة تعنيه مباشرة . كان حياديا حتى تجاه نفسه . لكن الذكريات الان تراكمت هنا وهناك ثم اندفعت مرة واحدة تقتحم عليه عزلته . حتى هذا الشارع نفسه . الذي كان يعرفه صخرا موزعا فوق ارض جرداء تعافها حتى الكلاب ، ها هو يتحول الى زينة وجمال وملايين من الليرات . كانت له فيه ذات يوم فرصة شراء ارض رفضها ، ولو اشتراها ذلك الحين . لكان يملك الان ما يسيل لعاب اية امراة جميلة . لكنه منذ فقد حبه اصبح قليل المغامرة ، وقليل الاهتمام الا بما يدفع به دفعا نحو الحياة . والان ، ها هي الارض القفراء تصبح شارعا وبنايات ومحال تجارية ودور سينما وملاهي ومقاهي وملايين الليرات تتحرك من يد الى يد . ومن الصباح الى الصباح التالي . ولقد كان يحدث نفسه بصوت يكاد يكون مسموعا . كم هو تعيس الحظ . لقد اوصله حياده الفاجع الى حياة ضجرة ووحشة تمتص رحيق الحياة من عروقه . انه في الخمسين . وماذا بعد الخمسين ؟

ومع تدفق ذكرياته ، خيل اليه للوهلة الاولى ان المراة السمينة التي تدخل باب المقهى ، وخلفها قافلة من الاولاد ورجل في مثل سنه . انه يلاحظ في ملامحها المراة التي احبها يوما . وما ان استيقظ حتى هتف لنفسه : انها هي ، هي ذاتها .. وراح يتاملها بطرف خفي، كانت منشغلة باولادها الخمسة ، صبيان وثلاث بنات . اما الرجل الذي يرافقها فكان مهتما بتامل وجوه النساء الموزعة هنا وهناك حتى خيل اليه كان الاولاد وامهم لا يعنونه شيئا . وما ان استقر الجميع جلوسا ، حتى تشاغل الرجل الخمسيني باشعال تبغ غليونه . وملا فمه بدخان كثيف ، ثم نفثه ، ومن خلله تامل المراة المترهلة من جديد . انها متهدلة الاجفان تخفي بالكحل ذلك الانتفاخ الواضح تحت عينيها . شعرها المستعار يعطيها شكل الدمية . ولم تستطع الاصباغ ان تخفي تجاعيد وجهها . كانت تريد ان تبدو اصغر سنا ، فهم ذلك من خلال حركاتها ، وطريقة تاملها الناس الاخرين . ولاحظ انها لم تعرفه . لقد مرت نظراتها على من يحيط به من نساء ورجال ، متجاهلة وجوده بالمرة . وفرح هو . انه لا يريد احراجها . في الوقت الذي رغب فيه ان يتلذذ بتاملها . انها حبيبته القديمة . الانيقة ، الرقيقة ، الحساسة ، الناعمة نعومة التبغ المعطر . نعومة الزهر ، نعومة نسمة الصيف ، العفوية ، الطبيعية ، الخجول . هل هي حقا تلك الحبيبة القديمة ؟ ام هذا ظلها ؟ . بل هي حقا . اذناها الصغيرتان . كم كان يحب اذنيها الصغيرتين ، لكنهما تبدوان الان ، وكانهما ليستا من هذا الوجه المترهل السمين المجعد .

ومن غير ما شعور ، رفع الرجل الخمسيني يده الى وجهه ، وراح يتلمس بشرته . انه ما زال محافظا على شبابها . ما زال جبينه دون تجاعيد ، وكان ممكنا لو تزوجها ان تصبح كما يراها الآن ! رفض القبول بذلك . لا ، كانت ستحافظ على جمالها . كان يحبها، ودائما كانت تقول انها تحبه. اما كان قادرا على تجديد الحياة اليومية فيهما معا ؟ حتى لو انجبت له دزينة اولاد ، اما كانت تستطيع الاحتفاظ برشاقتها واناقتها . وقدها المتناسق الجميل ، الذي ظل يحلم طويلا بيده تلامسه قطعة قطعة . لكن هذا الرجل الذي اوحى لها ذات يوم بالاستقرار ، بالبيت الكبير ، بالملابس الكثيرة ، بالسفر الدائم ، بتالقها في المجتمع ، بمنحها مزايا مادية لم تكن متوفرة لديه ، اخذها. ووافقت . تعاقدا معا على المشاركة في الحياة ، على ان يقدم كل فريق للاخر ما يريده ، هي تقدم الاولاد ، وهو يقدم المال . اما

الحب . فلا هي اعطته اياه . ولا هو احس به ابدا . « انه متاكد من هذه المعادلة » متاكد منها منذ خمس وعشرين عاما . كانت تحبه، كانت تحبه وحده ، ولم تحب سواه . وبالتاكيد . لم تحب زوجها ابدا . والا لما اصبحت كما يراها الان : قطعة من اللحم المصبوغ .

واحس الرجل الخمسيني بنوع من الراحة والهدوء ، فيمـا عاد يتامل المراة السمينة ، كانت تتناول طعامهـا بشراهة مبتذلة .ناسية الاولاد والرجل الذي يرافقهـا . بل انه لاحظ ان كل مخلوق حـول طاولتهـا يهتم بصحنه فقط . وان كـان الزوج يتلفت بين الحيـن والحين فلقا ، لتستقـر نظراته على وجه امراة جميلة ما محـاولا لفتها اليه بعينيه المتصنعتي الذبول والهيـام .

اشعل الرجل الخمسيني غليونه من جديد . ثم عاود النظـر الـى الاسرة . وفي داخله احساس بالدعة والغبطـة . هذه المرة تنبه الـى الرجل الاخر يحدقاليهمباشرة . فتشاغل عنه لوهلة ، في سحبنفس عميق من الغليون الا انه انتبه للرجل من جديد . ما زال يحدق اليه مباشرة . فتجرا هو ايضـا وحدق نحـو غريمه القديم . ظل على هذه الحال فترة . ثم لاحظ ان نظرات الرجل الاخر نحوه خفت حدتهـا . وان ظلت في الثبات عليه . واحس تجاهه بنـوع من الاشفاق ،فابتسم له ، كذلك ، انفرجت اسارير الرجل الاخر . وخيل اليه كانظراته تحولت الى تحيـة غامضة ، فهز راسه يرد عليها . ثم تساءل فيداخله: هل يعرفني ؟ ونفى ذلك فورا ، فكلاهما لـم يتعارفا من قبـل ، اشعل الرجل الاخر سيكارة ، ثم عـاد ليتامل الرجل الخمسيني ، لاحـظ هذا ان ثمـة همومـا بدات تنضح من وجه غريمه ، بل احس انهيعاني مثل وحدته ووحشته ، فاحس بالتعاطف معه .

الان ، كان الرجل الخمسيني يتامل وجـه غريمه ، كان حوارا صامتا يدور بينهمـا ، كان الرجل الاخر قد كف عن ملاحقة وجـوه النساء الاخرى تماما . بل كـانه تذكـر للتو كهولته . وتذكر انه زوج هذه المراة المترهلـة وابو هؤلاء الاولاد الصاخبي الحركات ، المهتميـن بتناول البوظـة اكثر من اي شيء اخر ، فازدادت تجاعيد وجهـه نتوءا وتغضنا ، وبدت نظراته للرجل الخمسيني ، كانه يستنجد بـه ويصرخ طالبا اللجوء اليـه .

تجاهل الرجل الخمسيني النداء ، لكنه تمنى في نفس الوقـت لو يفتح صدره للرجل يبثه هموم خمسة وعشرين عامـا .

هذه اللحظة ، كانت يد كل منهمـا مشغولة ، احدهما باشعال سيكارة . والاخر باشعال غليونه . وانتبه صاحب الغليون ان غريمـه يتامل يديه بدهشة فاغرا فاه ، استغرب في البدايـة ومع ازديـاد تحديق الرجل الاخر في اصابعه ، انتبه هـو الى اصابع غريمـه القديم . آه . لا شك ان دهشته كانت بسبب عدم وجود خاتم ما في اصابعه . بينمـا كانت يـد غريمه اليسرى منطويـة على خاتم ذهبي فقـد لمعانه ، غارق في اسفل الاصبع كانه متداخل في قلب لحمها. هل يحسده لانه ليس متزوجـا ؟ لم يتزوج قط . من يحسد الاخـر ؟هل يدرك ان هذه المراة المترهلـة ام اولاده ، التي يتبرم بها ، كانـت حبيبته قبل خمسة وعشرين عاما . حبيبته التي بفقدانها ، فقد كـل لذة في الحياة ، فقد الغد ، فقد الليـل والنهار ،فقـد الزمـن والوقت ، الربيع ، والخريف ، والصيف ، والشتاء . فقد لذة العمل ولذة الفراغ ، فقـد معنى الحنان ، والاحساس بالجوع والشبـع والظمـا .

واحس الرجل الخمسيني باختناق غريب ، كان عشرات الايدي الحديدية تهصر قلبه هصرا ، وكان بوده لو يعبر لغريمه الان عـن كرهـه الشديد ، لولا ان نداء يائسا احس به يرتسم على وجهالرجل الاخر ، نداء مشبعـا بالمرارة والخوف والمرض والانسحاق .

ومعا ، كلاهما ، التفتا نحـو المراة السمينة المتهدلة ، ومعـا انتبها الى ان عينيهـا مثبتتا النظرات في وجه شاب فتي . كـان بالقرب منهم جميعا ، يتشاغل بملامسة شعره الاسود الفاحم . وكلا الرجلين معا ، غضا الطرف من جديد نحـو حذاءيهما ، فيمـا كـان الشارع في الخارج يهدر بالناس والسيارات وصراخ الباعـةوالموسيقى والطائرات مثل نهـر عظيم يتدفق بقوة .

بيـروت

العراء

مجموعة قصص بقلم

الدكتور سهيل ادريس

دار الآداب

صدر حديثا